مجلة روافد للبحوث و الدراسات / مخبر الجنوب الجزائري للبحث في التاريخ والحضارة الإسلامية
جامعة غرداية / العدد التاسع (ديسمبر 2020 م)
E: 2588-1787 / P: 2543 - 3563
/http://rawafid.univ-ghardaia.dz

هاجس البحث عن الماء في المسالك الجزائرية
من خلال بعض كتب الرحلات المغربية خلال القرنين 11-12هـ/ 17-18م

د/ عمر بن قايد
أستاذ محاضر أ بقسم التاريخ
جامعة غرداية /الجزائر
amar_gh14@yahoo.com

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى التعريف بأبرز ما دوّنه الرحالة المغاربة أثناء مرحلتي الذهاب والعودة، وأثناء المقام، ومما شاهدوه ووقفوا عليه من الاهتمام بالآبار والعيون والوديان، ووصف عُمقها وطريقة حفرها واختبار طعمها وجعلها صالحة للشرب. كما اهتم الرحالة المغاربة في العصر الحديث أثناء مرورهم بوصف الآبار والعيون، فكلما توفر الماء في مسار الرحلة الحجازية كلما اطمأنت قلوب الحجاج وأحسّوا بالأمان، وكلما قلّ الماء اشتدت القلوب؛ مما أضفى على الماء قيمة خاصة في كل الرحلات الحجازية التي انطلقت من المغرب مرورا بالجزائر باتجاه الحجاز. وخلص البحث إلى التأكيد على أهمية الماء في مجتمع بلاد المغارب، وعلى خبرة الركب الحجازي في الكشف عن أماكن تواجده، باعتباره الشُغل الشاغل لهؤلاء الرحالة في كل تحركاتهم.

الكلمات المفتاحية: هاجس الماء؛ الآبار؛ العيون؛ كتابات الرحالين المغاربة؛ العصر الحديث؛ مسالك الصحراء الجزائرية.

Obsessed with searching for water in the Algerian tracts Through some books on Moroccan travels during the 17-18 centuries

Abstract

This research paper aims to introduce the most prominent things recorded by Moroccan travelers during the two phases of coming and going and during the maqam, and what they saw and stood upon in terms of interest in wells, springs and valleys, and described their depth and method

of drilling, testing their taste and making them drinkable. Moroccan travelers in the modern era were also interested in describing the wells and springs during their passage, so the more water was available in the path of the Hijaz journey, the more reassured the hearts of the pilgrims and they felt safe, and the less water the hearts became, which gave the water a special value in all the Hijaz trips that set out from Morocco through Algeria towards Hijaz. The research concluded by stressing the importance of water in the society of the Maghreb, and the experience of the Hijaz rode in discovering the whereabouts of water, as it is the primary concern of these travelers in all their movements.

Key words: obsession with water; Wells; the eyes; Writings of Moroccan travelers The modern era; Paths of the Algerian desert.

تقديم:

يكتسي الماء قيمة خاصة في كل الرحلات الحجازية ؛ باعتباره عنصرا أساسيا في اختيار طريق الحج وتتبعها للوصول بنجاح، لذا فالماء يُعد من أوليات الرحلة ولوازم السفر التي حرص الرحالون على توفّرها وامتلاكها قبل شدّ الرحال، ولذلك فكلما توفّر الماء في مسار الرحلة الحجازية ؛كلّما اطمأنت قلوب الحجاج وأحسّوا بالأمان، وكلّما قلّ الماء شعر الناس باليأس والخوف، على أن الماء في المسالك الجزائرية؛ يبقى عنصرا أساسيا في اختيار طريق الركب الحجازي المغربي، تبعاً لخصائص جغرافيا المسار التي غلبت عليها الصبغة الصحراوية، كما كان للماء قيمة خاصة في كل الرحلات الحجية التي انطلقت من المغرب الأقصى في اتجاه أرض الحجاز[1].

إن تعبير الرحالة عن مخاوفهم من نقص الماء، قد جاء من مدار حياتهم السفارية، فمنابع الماء لها أهمية كبيرة في سفرهم، ولقد دفعتهم تجاربهم في الطريق إلى الاحتياط من

1 - سليمان القرشي: الماء في الرحلات الحجية المغربية بين الحقيقة والرمز، ضمن كتاب أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمين: السودان وإفريقيا في مدوّنات رحالة الشرق والغرب - اكتشاف الذات والآخر: المركز العربي للأدب الجغرافي في ارتياد الآفاق بأبوظبي ووزارة الثقافة والرياضة والشباب السودانية ، الخرطوم، السودان ،2006، ص ص81-90.

الماء، حيث لجأ المسافر في بعض الحالات إلى شُرب فرث الإبل خوفا من الموت عطشا، ولهذا كان منادي الركب الحجازي يحث دائما على تعهد أسقيتهم وملء قربهم قبل الانطلاق في المسير.

وقد اتّجه القصد في هذا البحث إلى التعريف بإبراز ما كتبه ودوّنه الرحالة المغاربة أثناء مرحلتي الذهاب والعودة وأثناء المقام، وما شاهدوه ووقفوا عليه من الاهتمام بالآبار والعيون والوديان، ووصف عُمقها وطريقة حفرها واختبار طعمها وجعلها صالحة للشرب، فزادت معرفتهم بالمنابع وتركت أثرها في كتاباتهم المختلفة بين تعابير مشوبة بالحزن الحذر في حالة الشدة والضيق[1].

على أن أهم ما عني به الرحالة المغاربة المياه، لشدّة الحاجة إليها في بعض المواضع، سواء كانت هذه المياه آبارا، أو غدرانا، أو عيونا، أو بِركا، أو أنهارا، والتزموا أن يصفوا بدقة طعم هذا الماء على اختلاف مذاقاته[2]. وأشاروا إلى مواضعه وبيّنوا بُعده وقربه من سطح الأرض، وأوضحوا طرق استخراجه والوصول إليه، بل لقد تغنّى به الشعراء من الرحالة وضمَّنوه قصائدهم وأراجيزهم، ذلك أن تعبيرهم عن مخاوفهم من نقص الماء قد احتل بؤرة شعورهم، لأنه مدار حياتهم وحياة دوابهم أثناء هذه السفرة[3].

ومن المعلوم أن الماء مورد طبيعي لا يمكن الاستغناء عنه، فهو يشكل أهمية بالغة في حياة الإنسان، والحيوان والنبات، وتزداد أهميته وضرورته أثناء تنقل الإنسان في الأسفار

1 - محمد ماكامان: الرحلات المغربية في القرنين11-12ه/ 17-18م،ط1، مطبعة الأمنية، الرباط 2014، ص 162.

2 - حسين نصار: أدب الرحلة، ط1، الشركة المصرية العالية للنشر، مكتب لبنان 1991، ص 118. سليمان القرشي: المرجع السابق، ص ص81-90.

3 - محمد ماكامان: المرجع السابق، ص 163.

والرحلات، إذ أن انعدامه أو قلّته قد يعرض الرحالة إلى أخطار ومشاكل. وقد قال الله تعالى عن هذا المورد ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

وانطلاقا من هذه الآية الكريمة، يتبادر إلى ذهن الباحث التساؤل الآتي: ما هي مكانة الماء في كتب الرحلات الحجازية المغربية؟ وما هي أهميته في تحديد مسار ركب الحج المغربي بالمسالك الجزائرية خاصة؟ .

تأتي هذه الورقة البحثية في سياق البحث عن هاجس البحث عن الماء في المسالك الجزائرية من خلال بعض كتب الرحلات المغربية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، في محاولة لتبيان أبعاده، معتمدين في ذلك على قراءة بعض النصوص التاريخية؛ مما جادت به علينا بعض كتب الرحلات المغربية أثناء عبورها بالمسالك الجزائرية باتجاه الحجاز. وعلى هذا الأساس جاء تصميم هذه الورقة البحثية؛ وفق المحاور الآتية:

- الماء في كتابات بعض الرحالة المغاربة.
- هاجس الماء في رحلة أبو سالم العياشي، في المسارات الجزائرية.
- هاجس الماء في رحلة أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي السجلماسي، ضمن المسارات الجزائرية.
- هاجس الماء في رحلة أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري، ضمن المسارات الجزائرية
- خاتمة: وفيها سجّلت أهم الملاحظات والاستنتاجات.

1 - سورة الأنبياء، الآية رقم 30.

1- الماء في كتابات بعض الرحلات الحجازية المغربية.

لكي يأخذ الدارس نظرة حول أهمية الماء في هذه المجالات الصحراوية، يكفي الاطلاع على ما هو مدوّن في بعض كتب الرحلات الحجازية، بدءً بالرحلة العياشية (ماء الموائد) في القرن 11هـ/17م، ومصنّفات الزاوية الناصرية في القرنين 11-12هـ/17-18م، ليطلع على بعض معاناة ركب الحجاج؛ من قساوة البرد، وندرة الماء، وخاصة في البراري الجزائرية[1].

ومن خلال الوقوف على بعض نصوص كتب الرحلات الحجازية المغربية، يتّضح لنا بأن أهم مشكل واجه الركب على امتداد الطريق، هو مشكلة قلّة الماء، إذ كان هو الأساس الذي يتوقف عليه السير الحسن للرحلة، كما أن الرحالين كانوا دائما في حالة ترقب وخوف من عدم وجود الماء في الأماكن التي كانوا يتوقعون وجوده فيها، فكم من مرة فوجئ الرحالين بعدم وجود الماء في الأماكن التي يعوّل عليها، مما كان يضطرهم إلى الرجوع أو تغيير الطريق، ولعلّ هذا الذي كان يتسبب في تعطيل الرحلة عن موعد وصولها. فضلا عما يتسببه من عطش سواء لهم أو لدوابهم.

فهذا أبو عبد الله محمد بن منصور العامري التلمساني؛ ثم التازي (ت. 1170هـ/1756م)؛ صاحب الرحلة العامرية، وهي عبارة عن "قصيدة همزية وصف فيها المراحل التي مرّ بها، وخاصة في الجزائر، حيث استوفى فيها تعداد الأشياء التي يحتاج إليه مريد الحج"[2]. ومن تلك الأشياء كانت القِرب ومواعين حفظ المياه الضامنة لاستمرار السير العادي للرحلة[3].

1 - أحمد مزيان: "استغلال الماء في الواحات نموذج فجيج(فكيك)"، في ندوة الماء في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، عين الشق الدار البيضاء1999، ص ص 117-126.

2 - عدد أبياتها 335، وتاريخ نظمها عام 1152هـ، وحسب ما جاء في آخر القصيدة ،ينظر: محمد المنوني: من حديث الركب المغربي، مطبعة المخزن، تطوان 1953، ص 18.

3 - محمد المنوني: المرجع السابق، ص 91.

وينصح التازي العامري التلمساني بالسقي، فيقول:

وَٱنْتَخِبْ قِرَبًا وَثِيقَةَ حِرْزِ جَيّدَاتلِ لِيُمَكّنَ اِسْتِقَاءُ

لا تُقلّل من استقاء فَكَم من سوء خلق إذْ يقل الماء شَرح[1]

ومن هاته الأشياء المتنوعة التي يؤكّد العامري التزوّد بها، والتي جعل لها من الأهمية ما لم تصله أشياء أخرى، قضية الماء التي تعتبر جد حيوية بالنسبة إلى الحاج، بل ومن أهم ركائز سفره، لاسيما وأن الحاج قد يطول سيره بين الصحاري والقفار، حيث يقل الماء لعدد من الأسابيع والشهور، لذا كان من الضروري واللازم على أمير الحج أو أي كان توفير هاته المادة الثمينة بأخذ ما يسد منها لأوقات طويلة واختيار المسالك الطويلة بارتياد المواقع التي تكثر فيها مواطن المياه، حتى لا يتعرضوا لمثل تلك الأخطار الناتجة من قلّة المياه، ومن تغويره وعدم نظافته أحيانا أخرى، بحيث لا يقوى على تحمّلها أحد إلا من كتب له طول العمر والبقاء[2].

وكانت المياه من بين أهم المعوّقات التي تأثر بها ركب الحجيج الذي ضمّ الغنامي[3]، ولقد تكلّم هذا الأخير عنها خلال ذكره لمناطق وجود الأحسن والأقبح من المياه، فأحيانا كان يوجد ببعض المناطق فإنه لا محالة سيتعرض للمرض لهذا يذكر الغنامي الأماكن التي يوجد فيها مياه قبيحة، والتي يجب الاستعداد لها، فيذكر: "البئر.... ماؤه قبيح جدا، والبئر..... ماؤه أقبح المياه[4].

1 - نفسه.

2 - مصطفى الغاشي: الرحلة المغربية والشرق العثماني، محاولة في بناء الصورة،ط1،مؤسسة الإنتشار العربي، بيروت 2015، ص392.

3 - هي رحلة حجازية سمّاها المؤلف" رحلة القاصدين ورغبة الزائرين". واسم صاحب الرحلة هو عبد الرحمان بن أبي القاسم الشاوي المزمزي الغنامي (كان حيا سنة 1141هـ/1728م)، مخطوط رقم 5656، بالخزانة الحسنية بالرباط، نقلا عن مصطفى الغاشي: المرجع السابق،ص418.

4 - نفسه.

و كان أبو علي محمد اليوسي المغربي (ت. 1102هـ/1691م) كثير الانتقاد لما يراه ويشاهده، فهو لا يتأخر عن الحديث عن المياه التي يصادفها الركب في الطريق وعن ملوحتها وقبحها وما تفعله بالإنسان الشارب لها من ضرر[1]، فبسكرة عنده : "بلدة كثيرة النخيل، إلا أن ماءها مالح"[2].

وقد ذكر الإسحاقي في رحلته الحجازية[3]،أن الركب الحجازي المغربي لمّا مرّ بقرية المشرية[4]،وجدوا الثلج بقمم جبالها، وأستقبلهم سكانها بلعب البارود، وممن كان ضمن هذا الركب الحجازي نذكر الأمير محمد بن عبد الله بن المولى إسماعيل العلوي[5]،ومما يذكره هذا المؤلف هو وصف المياه بكثرة[6].

وبتراكم التجارب وطول الاحتكاك بالطرق والمسالك الجزائرية المؤدية إلى الحجاز، فقد زادت معرفة الرحالين المغاربة بالمنابع ومميزاتها، وتركت أثرها في كتاباتهم المختلفة بين تعابير مشوبة بالحزن والحذر في حالة الشدة والضيق، وبين تعابير أدبية وتشبيهات رائعة في حالة وفرتها التي تسبب الانشراح[7].

1 - رحلة اليوسي: مخطوط بالخزانة الحسنية بالمملكة المغربية، تحت رقم : 2343، ورقة رقم 11 و12.وتوجد نسخة مصوّرة منها لدى الباحث،

2 - نفس المصدر.

3 - رحلة الوزير الإسحاقي الحجازية، لأبي محمد سيدي الشرقي بن محمد الإسحاقي (ت. 1150 هـ/1737م)، ينظر: محمد ماكامان: الإسحاقي، في معلمة المغرب، إشراف محمد حجي، مطبعة سلا، الرباط1989،ج2، ص 402.

4 - قرية المشرية، وهي اليوم المسماة بنفس الاسم، تقع في شمال الجنوب الغربي ،أكبر بلديات ولاية النعامة .

5 - هو محمد بن عبد الله بن المولى إسماعيل (1694 - 1757) ، ينظر ترجمته في كتاب: تاريخ الضُّعَيّف الرباطي،ج1،ص ص 297 – 372 ، إتحاف أعلام الناس، ج3، ص ص 148- 363.

6 - مصطفى الغاشي: المرجع السابق، ص306-308.

7 - محمد ماكامان: الرحلات المغربية ...، المرجع السابق، ص 121.

أما الرحالة المغربي ابن مليح السراج[1]، فيقدّم في رحلته الحجازية،وصفاً دقيقاً لمساره الذي اتّخذ من موارد المياه نقط توقف ومحطات استراحة، وهو في هذا الوصف يتجاوز البُعد الجغرافي ليتناول طعم الماء ومذاقه، حيث يقول :

"...تابلبالة[2] بأنها ذات ماء زلال عذب، وذات عيون جارية...وفي منطقة إزكر[3] ليس فيه إلا بئر واحدة ماؤها ملح أجاج، وحفر أهل الركب بئر أخرى...ثم نزلوا بواد يعرف برسم الليل، وفيه آبار وكلأ، ثم مورد آخر يعرف بالعيوج فيه بئر غامقة جدا قليلة الماء...ثم مورد يقال له البيض عكلة كثيرة الماء بين عروق الرمل... "[4].

ويُستشف من هذا القول أهمية الماء وذوقه، لما له من علاقة ووشيجة للرحالة؛ فالماء بالنسبة له جزء من الرحلة الحجية ومن حياته، بل إنه من أكثر أجزائها خطورة وأهمية لتحكمه في حياة الرحالة ذاته وتأثيره في مسار رحلته ومصيرها.

2- هاجس الماء في رحلة أبي سالم العياشي (ت. 1090هـ/1679م)[5] **في المسارات الجزائرية:**

1 - هو محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن محمد القيسي، الشهير بالسراج الملقب بابن مليح، له رحلة حجازية، سمّاها "أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب"،ينظر: أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي: أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب 1040-1042هـ/1630-1633م، حقّقها محمد الفاسي، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي بالمغرب، فاس 1968،ص ب.

2 - هي اليوم مقر لدائرة، كائنة بجنوب ولاية بشار الجزائرية، على الحدود المغربية.

3 - إزكر-رسم الليل- العيوج- البيض عكلة، أسماء لأودية في الجنوب الغربي الجزائري، لم نتمكن من التعرف على أسمائها .

4 - تمت هذه الرحلة بين سنتي 1040-1042هـ/ 1630-1633م، ينظر: ابن مليح: المصدر السابق، ص 31-32.

5 - أبو سالم العياشي: الرحلة العياشية، حقّقها وقدّم لها : سعيد الفاضلي، سليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة 2006،ج 1، ص161.

كرّس الرحالة المغربي أبو سالم العياشي قسطا من كتاباته في الحديث عن عيون وآبار توات[1]، بالجنوب الغربي الجزائري، ولاحظ تشابها بينها وبين خطاطير[2] مراكش، حيث قام بإحصاء آبار المنطقة للتعريف بها[3]، وتكلم أيضا عن الفقاقير[4] في منطقة توات[5]. كما وصف العياشي وادى "إيمكيدن"[6]، بقوله: "مياهه كثيرة، قلّ ما تخلو يوم من منهل، وماؤه عذب..." وفيه يقول أعراب ذلك البلد:

واد أ مكيدن مانعطش فيه كل يوم نجئ على ما

وتكلّم في هذا الخصوص في العداوة الناشئة بين قبيلتي أولاد محمد وأولاد سعيد بسبب الماء[7].

كما وصف العياشي مدينة المنيعة(القولية) بالجنوب الجزائري، وقال أن بها أبارا كثيرة طيّبة الماء، ثم وصف بئر زيرارة[8]، وقال عنها: "أنها بئر طويلة جدا متوحد في بسط من

1 - توات: هي اسم لمنطقة كبيرة في الجنوب الغربي الجزائري، كانت عاصمتها تمنطيط وانتقلت في الأخير إلى تيمي بأدرار، ينظر: فرج محمود فرج: إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1977،ص ص20-25.

2 - مفردها خطارة، وهي تقنية أصيلة في مجال السقي التقليدي بالجنوب المغربي، وهي عبارة عن قناة باطنية، يستخرج منها الماء بطريقة تقليدية .

3 - أبو سالم العياشي: المصدر السابق، ص264.

4 - الفقارة هي أحد أهم طرق الري التقليدي في منطقة توات بالجنوب الغربي الجزائري، ينظر:محمد حوتية: توات والأزواد، ط1، دار الكتاب العربي ، الجزائر2007،ج1،ص85.

5 - أبو سالم العياشي: المصدر السابق ،ج1، ص 82.

6 - هي قرية منسوبة اليوم إلى وادي مقيدن، وهي من القرى النائية التابعة إداريا لبلدية تميمون، وتبعد عنها بحوالي 160 كلم من الناحية الشمالية، كما تبعد عن مدينة أدرار بـ 360 كلم.

7 - أبو سالم العياشي: المصدر السابق ،ج 1، ص107.

8 - هي بئر قديم جدا ، يوجد حاليا على حافة الطريق الوطني رقم واحد، ما بين منطقة حاسي لفحل والمنيعة.

الأرض بين جبلين،أحدهما من رمل،وماؤها حلو جدا، وفيه يقول أعراب ذلك البلد: ما أحلى ماءك وما أبعده يازيرارة"[1].

وأثناء مساره بين منطقتي المنيعة وحاسي الفحل، صادف العياشي بئرًا يعرف بـ "الجديد"[2] وآخر يقال له " وادي أتغير"[3]. وقد وصفه بأنه بئر غزير الماء في بسط من الأرض بين جبلين، ثم تكلم عن بئر آخر في المنطة، اسمه أبو الرغاوي[4].

وحين مروره بمدينة ورقلة قال عنها العياشي ما نصّه: "ومن غرائب هذه البلدة استخراج عيون الماء الغزير بحفر الآبار، فيحفرون بئرا نحوا من خمسين قامة، ثم يصلون إلى حجر مصفح على وجه الأرض فينقرونه، فإذا نقبوه فاض منه الماء فيضانا قويا، ويطلع كذلك بسرعة إلى فم البئر ويصير عينا، فإن لم يتدارك الحافر بالجذب أغرقه الماء، ومتى احتاجت العين إلى الكنس حصلت لمتعاطي كنسها مشقة كثيرة، وربما تركوها بلا كنس للمشقة فتندثر، وقد أخبرني من أصحابنا من عاين كنسهم للعيون بأمر غريب، وكذلك عيون أهل وادي ريغ."[5].

ولم يكن الماء مُحدداً لمسار للرحالة العياشي فقط، ولكنه كثيراً ما تحكّم في زمن الرحلة وحدّد مدة الإقامة وزمن الرحيل. أما عن منطقة وادي سوف؛ فقال عنها: "...ثم ارتحلنا ونزلنا بموضع يقال له العلندا، وأصابنا فيه مطر وابل، وأقمنا بسببه يوما على غير ماء، لأن البلد كله رمل فلا يمسك ماء، فكان الماء سبب إقامة الناس، وهم لا يجدونه للوضوء والشرب إلا ما في القِرب معد للمراحل التي بعدها، أو ما جمع في الأوعية المطروحة

1 - أبو سالم العياشي: المصدر السابق ،ج 1، ص112.

2 - الجديد هو بئر قديم يوجد بالقرب من مدينة المنيعة.

3 - وادي التغير، وادي يوجد بمنطقة حاسي الفحل ولاية غرداية.

4 - بئر تقليدية موجودة في منطقة بين حاسي الفحل و ورقلة .

5 - أبو سالم العياشي: المصدر السابق ،ج1، ص118.

خارج الأخبية أو على أطرافها يجتمع فيها ما سال منها "[1]. ولأن المسار صحراوي بامتياز، ولأن العين قد تعودت طوال مسيرة امتدت لأشهر عدة على مناظر القحط التي ألفها الراكب والمركوب على السواء، حتى غدا منظر الماء، مما يجفل الإبل ويثير روعها، كما هو الشأن في الرحلة العياشية التي وصف صاحبها بدقة متناهية شعور الإبل. وقد استحاشت برؤية البحر، يقول أبو سالم العياشي": وفي الغد ارتحلنا من هناك، فلما كان قريبا من الظهر بدا لنا البحر عن يسارنا، ودنونا منه فتسارع إليه من لم يعرفه من الحجاج، ولم تزل الطريق تقرب منه إلى أن مرت بإزائه كرمية بحجر عند برج الملح، ونزل غالب الناس هناك عن رواحلهم للوضوء ولأخذ المحتاج إليه من الملح ... ثم تجاوز الناس ذلك المحل قرب العصر، ولم يكن عند الناس ماء وهم طامعون أن يصلوا إلى الماء ولو بعد المغرب، فلم يسيروا إلا قليلا حتى ظهر في الإبل إجفال ونفور. ورفع كل بعير رأسه كأنه قناة تفور، فأكثرت العدو لما استقلتا الخبب"[2].

كما وقف أبوسالم العياشي على قصر مخيليف[3] بصحراء الجزائر، حيث قدّم وصفا مسهبا للمنشآت المائية بالقصر المذكور، وألمع إلى ما يلاقيه الحجاج المغاربة من عنت به جراء قلّة الماء في أيام الحر، حيث يقول : " ثم ارتحلنا من هناك وجئنا ظهرا لقصر المُخيلف ووجدنا فيه مياها كثيرة في مآجل، ووجدنا به جابيتين متلاصقتين مبنيتان بالحجارة المرصوصة بناء متقنا، وكل واحدة طولها نحو المائة ذراع في مثلها وقد تعرضتا لأفواه الشعاب وجمعتا من الماء ما تبحر وكاد أن يتفجر، وأخذ الناس منه حاجتهم وتوضأوا. وهذا القصر من أعظم القصور الخالية التي بقيت رسومها في تلك البلاد، وفيه أثر مسجد ومئذنته باقية إلى الآن، وليس فيه ماء حي، ولو احتسب أحد من الولاة بحفر بئر

1 - المصدر نفسه ،ج 1، ص123.

2 - الخبب هي البعض المخازن التي يخزن فيها الماء، ينظر: الرحلة العياشية ،ج 1، ص130.

3 -هي منطقة كائنة بولاية النعامة، قريبة من الحدود مع مناطق شمال البيض .

فيه لكان فيه أعظم الأجر لأنه في محل بعيد من الماء من كل الجهات، وقل ما يسلم الحجاج في أيام الحر من شدة تقع لهم بسبب العطش في ذلك المحل أو قريبا منه "[1].

3-هاجس الماء في رحلة أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي السجلماسي[2]،ضمن المسارات الجزائرية:

عكست هذه الرحلة تجربة وخبرة صاحبها، أثناء مروره عبر الطريق التي كان يجتازها الركب المغربي مع نهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر الهجريين/السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، للوصول إلى الحجاز، ولذلك يمكن إعتبار تدوين هذه الرحلة جاء في إطار توفير دليل مساعد للرحالة أو الحجاج اللاحقين، بغية التحذير من المخاطر والمهالك التي يمكن أن تشكل خطرا على المرتحلين، ولذلك جاءت الرحلة الناصرية مشحونة بمعلومات وخبرة تهم الطريق وأماكن الماء والسرقة، ولم تقتصر الرحلة على ذكر المعلومات الخاصة بالطريق، بل تضمنت مشاهدات تهم عادات بعض المناطق، وكذا جغرافيتها الطبيعية والبشرية، وقد اعتبرها الدارسون أحد المصادر الهامة للمؤرخ والجغرافي والاجتماعي[3]. فهذا أبو العباس أحمد بن ناصر (ت. 1085 هـ/1674م) في رحلته الحجازية، يخبرنا أنه قد "مات من المغاربة زهاء ستين من العطش، من نساء وصبيان ورجال وولدان"[4].

لذا فإن منابع المياه تعتبر محطات رئيسة في مسار الرحلات الحجازية المغربية، يستمد حجيته من الوقوف على هذه المحطات من طرف مختلف الرحالين، ومن هذه المحطات

1 - أبو سالم العياشي: ج 1، ص203.

2 - أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن الحسين بن ناصر المشهور باسم مُحَمَّد بنَّاصر الدّرعي فقيه ولغوي وجامع كتب مغربي، ينظر رحلة أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي: الرحلة الناصرية، تح: عبد الحفيظ ملوكي ،ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة 2011، ص ص 12-16.

3 - الغاشي: المرجع السابق، ص295.

4 - أحمد ابن ناصر الدرعي: رحلة الناصرية، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم : 1349، ورقة 117.

نذكر قصر مخيليف بالصحراء الجزائرية، الذي يصادفنا الحديث عنه في مختلف النصوص الرحلية، ومن هذه النصوص، نذكر الرحلة الناصرية التي جاء فيها : "وصلينا الظهر بقصر مخيليف، ولم نجد به ماء، وفيه مواجن(أحواض مائية كبيرة) كثيرة مبنية بالحجارة المرصوصة بناء متقنا، ويجتمع فيه من ماء المطر ما يتبحر حتى يكاد يتفجر."[1].

وقد حفلت رحلة أحمد الناصري الدرعي بالكثير من الأخبار عن العيون والأودية، فكلما مرّ على منطقة إلا ويذكر مياهها ووديانها، وهكذا نجده يذكر منطقة الزيرق[2]، حيث يقول في ذلك: " وملئنا الماء وسقى الناس دوابهم، وشربوا وملأوا بعض القرب." [3] ويذكر كذلك وادي "درمل"، ثم وادي أبي رزق، ثم أم القرار، ووادي الرباوات، ووادي دمت ثم البرج وعبد المجيد والفيقك[4].

4- هاجس الماء في رحلة أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري، ضمن المسارات الجزائرية:

تُعدّ هذه الرحلة من آواخر الرحلات الحجازية المغربية المدوّنة، والتي جاءت ضمن ما كان يعرف الركب السجلماسي، وتسمى كذلك بالرحلة الناصرية[5].ورد بها الكثير من الأخبار والمعلومات عن المجتمعات القاطنة عبر المسالك الجزائرية التي مرّت بها، وكانت أخبار الماء،

1 - أبوالعباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي: المصدر السابق، ص 130.

2- تسمى اليوم " بن الزيرق"، وتقع شمال مدينة يشار بحوالي 40كلم، في الطريق إلى بني ونيف، تحدث عنها أبو العباس الهلالي السجلماسي (1114هـ/ 1175هـ) في رحلته الموسومة بـ: رحلة أبي العباس السجلماسي(التوجه لبيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام)، ط1، دراسة وتح: محمد بوزيان بنعلي، مطبعة الجسور، وجدة 2012، ص 113.

3 - أبوالعباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي: المصدر السابق ،ص 125.

4 - وادي درمل – وادي أبي رزق- أم القرار-وادي الرباوات – وادي دمت – هي مناطق تابعة إداريا لولاية النعامة، وأما الفقيق فهي منطقة حدودية بين الجزائر والمغرب الأقصى، متاخمة لولاية بشار، وقد ذكرها المؤلف، ينظر: أبوالعباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي: المصدر السابق، ص ص 128-134.

5 - أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي: الرحلة الناصرية، تح: عبد الحفيظ ملوكي ،ط1،دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة 2011. ص ص 5-10.

من أهم الاخبار التي تداولها المؤلف في مؤلفه، وخاصة ما رآه وتفقده في أهم مناطق العبور الجزائرية، والتي حظيت بالكثير من تلك المشاهدات، حيث تطرّق إليها صاحب الرحلة. وسنورد نماذج من تلك الهواجس المتعلقة بالماء:

كثر ذكره للماء والطرق التي يوجد فيها، حيث يقول:" فارتحلنا قاصدين ماء المداكيك[1] والعوينات وتلغمت[2]... تجتمع بها سيول الأمطار، فمن أجله يحفر نحو ذراع فيظهر الماء به عذوبة المطر... إلا أن به أفاعي كثيرة توجد على الماء... ونادى منادى الركب بالليل يحمل الماء والحطب والكلأ لمسافة الحماد" [3].

ويذكر واد قير[4]،ومنبعه القريب، الذي يتدفق بالمياه، ثم يذكر القنادسة وعيونها ووديانها، ثم يصف قرية" وَكْدَ" التي أخبر بأن ماءها وحلو وعذب[5]. ومما تجدر الإشارة إليه، أن المؤلف كلما مرّ بمنطقة إلا وذكر ماءها، فهذا الزويرك ماؤه عذب قليل، ثم ورّد الركب

1 - المداكيك- العوينات- تلغمت، هي مناطق تابعة حاليا لولاية النعامة.

2 - أغلب الظن أنها مناطق توجد في ولاية بشار، تابعة اليوم لدائرة القنادسة، فالمداكيك وتلغمت، وهي محطتان استراحة للركب السجلماسي، أوردها أبي العباس الهلالي السجلماسي: الرحلة...، مصدر سابق، ص102.

3 - الدرعي: المصدر السابق، ص 180-181.

4 - ينبع وادي غير من المغرب، من جبل تيمجناتين، على ارتفاع يزيد عن ألفي متر2000م، وهو يتدفق على امتداد 450 كلم إلى أن يصل إيغلي بولاية بشار باتجاه زوزفانة التي يختلط بوادي الناموس، ليشكّل وادي الساورة، ويمتد في الجنوب الغربي الجزائري ليغذي العديد من بساتين النخيل لا سيما في قصور بني عباس وكرزاز إلى أن ينتهي ببني عباس و قورارة ، ينظر:

Paul Fitte : La vallée de l'Oued Guir (Confins Algéro-Marocains). Une culture primitive inconnue, in Bulletin de la Société préhistorique française,Anné 1947,vol 44,n07,pp 215-222.

5 - الدرعي: المصدر السابق، ص 187.

بجبل عنتر[1]، ثم يذكر أن الركب قد بات بالسهب الغفولي على غير ماء، ثم دار دخيسة، والتي وجدوا بها غديرا ماؤه عذب[2].

ومن المناطق التي ذكرها المؤلف كذلك والتي لها علاقة بالمياه، منطقة العرجاء، ثم بئر ابن حسون، ثم وادي" درمل" ثم أبي زرق، ثم بئر" بلياطة"، وهو قريب من أم القرار، ثم وادي حجاج، الذي وجدوه سائلا بالأمطار، ثم وادي الصم أو القصب، ثم الرصف الحمراء، بجانب منطقة تيوت[3].

وكان الناصري كثير الوصف لكل ما يمر به، فهو يذكر وادي الخنافيس، فهو ذو ماء عذب ، وواد ربى، أو أرباوات، وبه عيون لا بأس بها، وبه بلدتان صغيرتان بهما عيون،ثم يذكر لنا منطقة "الموتغ" ثم منطقة الكراكد، التي بها ماء عذب، ثم الغاسول، و ماؤه مالح، ثم منطقة المخيلي، ووادي شهبور[4].

وفي عين ماضي؛ يذكر المؤلف أن ماؤها من عين واحدة خارجة من سفح الجبل، وهي عذبة وباردة، ووصف المؤلف وادي أمزي(مزي) بالأغواط، الذي يقل ماؤه بالصيف، كما قدّم أيضا وصفاً للكثير من الأودية والعيون التي مرّ بها في طريقه، كماء بلدة العسافية، ووادي الحميضة، ثم منطقة الحواجب، وعيون السلطان، وماء البرج، ووادي عبد المجيد، ثم أولاد جلال، وبسكرة، ووادي أم هانئ[5].

1 - جبل موجود بالقرب من مدينة بشار الجزائرية.

2 - الدرعي: المصدر السابق، ص 191،هذه الأماكن موجودة كلها بولاية بشار، بالجنوب الغربي الجزائري.

3 - هذه المناطق توجد حاليا بمنطقة عين الصفراء ولاية النعامة.

4 - هذه المناطق تابعة لولاية البيض، وقد ذكرها المؤلف، ينظر: الدرعي: المصدر السابق، ص ص 197-201.

5 - المصدر نفسه، ص ص 204-229.

خاتمة :

ومن خلال ما تقدّم، يمكن القول:

– يكتسي الماء أهمية خاصة في مجتمع بلاد المغارب، كما هو الحال في جميع المجتمعات الإنسانية، وأبرزت الدراسة خبرة الموكب الحجازي في الكشف عن أماكن تواجد الماء، باعتباره الشُغل الشاغل لهؤلاء الرحالة في كل تحركاتهم.

– ترتبط الرحلة الحجازية بعنصر الماء بأكثر من علاقة، فالماء جزء من الرحلة الحجازية، بل إنه أكثر أجزائها خطورة وأهمية، نظرا لتحكّمه في حياة الرحالة وتأثيره في توجيه مسار رحلاتهم وتحديد مصيرها.

– لقد كانت الآبار، وأماكن تواجد عيون أخرى، قبلة للرحالين المغاربة ومقصدا للحجاج الذين نسجوا علاقات خاصة ومتينة معها، وسجّلوا ذلك بعناية فائقة واهتمام بالغ، وكل ما طاف بجوانحهم من مشاعر، وما علق بأذهانهم من ذكريات، وهم يرتوون من معينها، ويتطهرون بمائها من أدرانهم الحسية والمعنوية. كما أظهرت الدراسة خبرة بعض المتواجدين في الركب في الكشف عن أماكن تواجد الماء، ومهارتهم في استنباطها.